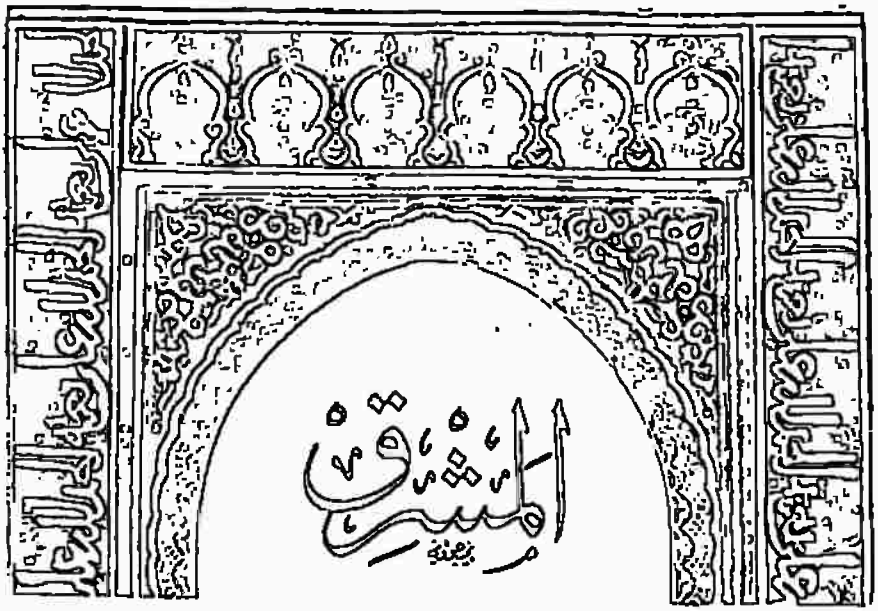

لبنان ١٩٢٩

قداسة الحبر الاعظم

بيوس الحادي عشر

يوبيله الذهبي الكهنوتي

بقلم المفوري بطرس غالب

افتتح الحبر الاعظم ، بيوس الحادي عشر ، يوبياله الكهنوتي الذهبي بقدّاس اقامه في كنيسة القديس بطرس ، يوم الخميس الواقع في ٢٠ ك ١ ١٩٢٨ ؛ وهو بدء السنة الخمسين لسيامته كاهناً . وقد حضر القداس عدد عديد من الكرادلة ، وهيئة سفراء الدول لدى الفاتيكان ، واشراف رومية ، واحبار كثيرون ، وممثلو المعاهد العلمية الحبرية والرهبانيات ، ووفود المؤمنين ، وفي مقدمتها وفد مديولان يرئسه مطرانها الكردينال توزي . وفي آخر الذبيحة الالهية تقدم من مائدة الخلاص للمرة الاولى مائة فتى وفتاة ارتفعت صلواتهم طالبة العون الالهي لمن ألقيت على عاتقه مسئولية مقدرات الكنيسة جمعاء.

وبمعرض هذا اليوبيل اذاع قداسة البابا منشوراً في العالم الكاثوليكي ،

في السادس من كانون الثاني من السنة الحالية ، بدوه « *Auspicantibus Nobis* » به اعلن افتتاح سنة مقدسة غير اعتيادية افاض فيها من كنوز الكنيسة النعم والغفارين العديدة ، محرّضاً المؤمنين على الاشتراك معه في الصلوات حتى تتوثّق العرى التي تربط ابناء الكنيسة بعضهم ببعض . ويدوم اليوبيل الى نهاية كانون الاول . وقد نشر البشير الاغرّ لائحة الانعامات التي يمكن غنمها ، والشروط التي يجب تتميمها لهذه الغاية ، فاذا الانعامات وافرة ، والشروط سهلة .

واذ كان لا بدّ للمؤمنين ابناء العائلة الكاثوليكية من ان يقفوا على حياة ابيهم وراعي نفوسهم ، ليعلموا ما زانه الله به من الصفات الفريدة ، ووضع في قلبه من الحلف الابوي ، فيزداد تعلّقهم به ، واحترامهم مقامه ، ومحبتهم له ، اثبت في هذه العجالة اوجز لهم ترجمته ، مكتفياً بما يصوّر لهم بيوس الحادي عشر صورةً مطابقة للاصل على قدر المستطاع .

١

حداثة اشيل راتي ، ورهبنته ، وكرازته

ولد امبرواز داميان اشيل راتي في بلدة دَزيو ، من اعمال اقليم مديولان ، في اليوم الحادي والثلاثين من شهر ايار سنة ١٨٥٧ ، وهو سادس اخوته السبعة الذين لم يعش منهم سواه ، وشقيقه فرمو ، وشقيقته كاميلا .

وقد عُني والداه بتربيته تربية مسيحية حقة ، ساعدهما فيها خوري الرعية النبيل ، يوسف ڤولونتري . ثم أرسل الى المدرسة الاكليريكية الاعدادية فانكب على العلم اي انكباب .

لحظ رؤساؤه شمائله الغراء ، وتحققوا ميله الى الدرس والحالة الكهنوتية ، فادخلوه الى مدرسة مونزا الاكليريكية ، حيث تخصّص لدرس المعاني والبيان . ولمّا انهاها عيّن ناظراً للتلاميذ في مدرسة القديس كارلوس في مديولان ، ثم جاز امتحان البكالورية فنال . عندئذٍ أحصي في عدد طلبة المدرسة الاكليريكية الكبرى حيث تلقّى الدروس العالية مدة ثلاث سنوات لمع فيها بين اقرانه .

وكان لعمه الخوري داميان راتي تأثير عظيم في نفسه ، وبفضله رسخت في

فؤاد ابن اخيه الفضائل الكهنوتية . فطلب اشيل الانضواء الى اخوية القديس فرنسيس الثالثة ، فقبل فيها سنة ١٨٧٤ .

ولمّا كان اشيل يقضي عطلته في بلدة أَسّو ، كان السيد ده كالابيانا يأتي للاستراحة فيها من عناء الاشغال عند الكونت هرًا . فرأى تقوى الاكليريكي واجتهاده ، ورصانته ، فوكل اليه تدريس اصول اللغة في مدرستَي القديس بطرس الشهيد والقديس مرتينوس . وكان يجلّه ويدعوه « فتاي الشيخ » . ولمّا تثبت من دعوته ارسله الى رومية لينجز دروسه في المعهد الاكليريكي اللومباردي ، وارسل معهُ الطالب لُوَالدي الذي رقّي في ما بعد الى كرسي مطرانية بلرمو في صقلية ، ثم الى مقام الكردلة . فواظب كلاهما على حضور الدروس التي كان يلقيها الآباء مازلّا ، وبلريني ، وكلوتفن ، اليسوعيون المشهورون . وكان يتلقى العلوم آنئذٍ في المدرسة ذاتها جياكومو دلّاكيازا الذي انتُخب في ما بعد حبرًا اعظم وعرف باسم بنديكتوس الخامس عشر . نال الطالبان شهادة الملفنة في الفلسفة واللاهوت والحق القانوني وكانا اول من حاز هذه الالقاب في مجمع القديس توما العلمي ، الذي كان قد انشأه لاون الثالث عشر في ١٣ تشرين الاول ١٨٧٩ .

ومن شدّة اعجاب الاب ليبراتورد اليسوعي معلمهما بهما لفت نظر البابا اليهما ، فاعرب لاون الثالث عشر عن رغبته في مقابلتهما . وفي تلك الحقبة كان قد انتشر مذهب روسميني الفلسفي في مصدر التصورات والنفس ، وهو مذهب نُسجت بردته من الاضاليل ، فاراد الحبر الاعظم ان يفهمهما الخطة الواجب سلوكها لمناهضة المذهب المذكور .

وفي اليوم العشرين من كانون الاول سنة ١٨٧٩ رقّي الملفان الجديد الى الدرجات المقدسة ، وخدم لهُ قداسه الاول رفيقه لوَالدي في كنيسة القديس كارلوس الخاص بالمديولانيين ، وبقي في رومية ثلاث سنوات عاد بعدها الى ابرشيته بصحبة رفيقه المذكور ؛ وعيّن لمساعدة خوري بَرني ؛ لكنه ما عتم ان استُدعي لالقاء دروس اللاهوت الاعتقادي والخطابة الكنسية ، فقام بمهمته خير قيام طيلة خمس سنوات . وفي سنة ١٨٨٨ قُبلَ في جمعية اساتذة المكتبة الامبروسيانية ووكلت اليه خدمة راهبات الطلّية الصهيونية . فانشأ في معبدهنّ

جملة اعمال روحية منها الرياضات والمحاضرات الدينية ، لكنه صرف عناية خاصة الى منظّفي المداخن الفقراء الذين كانوا يغادرون جبالهم الى المدن للاوتراق من مهنتهم هذه في فصل الشتاء.

ولم يفُت الكردينال فرّاري مطران مديولان اجتهاد كاهنه ، فجعله مستشارًا لهُ واسند اليه عدة وظائف هامّة في ديوانه.

ومن يوم باشر الكاهن راتي خدماته الروحية ، انخرط في سلك جمعية كهنة القديس كرلوس التي كان شعارها «التواضع» وتجنّب اي مسعى توصلًا الى المراتب الكنسية . على ان بيوس العاشر اوجب على الكاهن لوالدي قبول مطرانية بلرموسنة ١٩٠٤ ، وبنديكتوس الخامس عشر رأى في الكاهن اشيل راتي صفات فريدة فاراد ان تستفيد منها الكنيسة.

٢

ادارة المكتبتين الامبروسيانية والفاتيكانية

أسست المكتبة الامبروسيانية في مديولان سنة ١٩٠٦ ، وقد عُني بها الكردينال فردريك بورومه ، ابن عم القديس كرلوس بورومه ، وتوفق اساقفة المدينة الى جمع شتّى المؤلفات والمخطوطات فيها ، ووكلوا ادارتها الى علماء فطاحل زادوها رونقًا وترتيبًا وثروةً علمية ، واغلب هؤلاء الاساتذة ، مع مديرهم ، من جمعية كهنة القديس كرلوس. طمح اشيل راتي الى منصب استاذ في الامبروسيانية فناله بجدارته ، وما لبث ان عيّن مديرًا لها خلفًا للسيد شريباني سنة ١٩٠٧.

وكان استاذ الامبروسيانية ذا اجتهاد لا يعرف الملل ، الّا انهُ حينما كان يشعر بحاجة الى الراحة في مدة العطلة كان يتسلّق جبال الالب حتى انه نال شهرةً في هذا النوع من الرياضة البدنية . وقد اطلق اسمه مؤخرًا على احدى قمم الالب الايطالية تخليدًا لنشاطه واقدامه.

ولم يمنعه انصبابه على الدروس من الاهتمام بالنفوس ، بل كانت سلواه وتعزيته ان يزور ابناءه ، منظّفي المداخن ، ويخاطبهم بلهجتهم ويدرّسهم

التعليم المسيحي ، ويعدّهم لقبول الاسرار .

وقد نشر عدّة مؤلفات ومقالات لفتت انظار علماء العالم اغلبها في محتويات المكتبة الامبروسيانية . وبعد ان انتخب حبرًا اعظم ، أطلق اسمه على احدى قاعات المكتبة المذكورة ، ووُضع في صدرها تمثاله النصفي .

وقف بيوس العاشر على اعمال مدير الامبروسيانية ، فدعاه الى رومية وجعله وكيل مدير الفاتيكانية مانحًا اياه حق الخلافة (٢٠ شباط ١٩١٢) وفي واقع الحال ، لمّا تنحّى الاب اهرله اليسوعي عن وظيفته سنة ١٩١٤ لتقدمه في السن ، خلفه السيد راتّي الذي رقّى سلفه ، بعد ان صار حبرًا اعظم ، الى رتبة الكردلة (١٩٢٢) . ولم يكن العبء ثقيلًا على اكتاف المدير الجديد بل قام به افضل قيام . وقد لحظ جميع زائري المكتبة ما كان عليه من دماثة الاخلاق ، والاسراع الى تلبية طلبهم . فانه كان مرشدًا اميناً عليماً يجود على المبتدئين بنصائحه ، ويدلهم الى افضل الطرق للاستفادة من دروسهم والتقدم فيها كأن العناية الالهية ارادت ان تهيّئ السيد راتي لذلك المقام السامي لتمكّنه من ان يفيد الكنيسة ، فجعلته يقضي شطرًا من حياته بين العلماء والكتب يكشف القناع عن الحقائق التاريخية مستقيًا المعلومات القيمة من اصدق المصادر ، ليتذرع بها للمناضلة عن الحقيقة ويطلع على اسرار السياسة ونيّات الرجال الذين اداروها ، حتى يتدبّر امره في معاطاته مهامّ الكنيسة .

٣

سفارته في بولونية

وكان بنديكتوس الخامس عشر يرتاح الى محادثة مدير المكتبة الفاتيكانية ، فما لبث ان وقف على ما يحويه ذلك الدماغ من المعارف ، فاختاره زائرًا رسولياً لبولونية وكانت المهمة شاقة في تلك الآونة ، لان بولونية لم تكن بعد نالت استقلالها (٢٥ نيسان ١٩١٨) ووكل اليه ان يتحرّى حالة تلك البلاد الدينية والادبية ويدرس انجع الوسائل لانهاض ذلك الشعب الكاثوليكي المبعوث من لحده ، ويؤسس تنظيم تلك الكنيسة المجدّدة شبابها . واليك بعض ما كتبه بنديكتوس الخامس عشر الى اساقفة بولونية في وصف مثله :

«هذا ذلك ، لا نكاد نرى لزوماً لتوصيتكم برجلٍ تشفع به تقواه ، وخبرته على الدين وخبرته بالامور ، وعلمه المشهور لدى الجميع . لكن ما نريد ان تعلموه هو ان لنا بهِ ثقةً بليغة تحملنا على ان نكون على يقين من ان مساعيه وجهده ستكون منها للكنيسة فوائد خطيرة في الغاية .»

ذهب السيد راتي الى پولونية واخذ يطوفها ، فاستقبله الشعب بمظاهر الفرح اما هو فاهتم بتوثيق علاقاته مع الاساقفة والكهنة ، وانّبهم ليكونوا اهلًا لادارة مقدرات امة كاثوليكية حفظت ايمانها رغم الاضطهادات المستمرة طيلة قرن ونصف قرن . وقد رأى الحاجة الى انشاء اسقفيات جديدة فعرض الامر للحبر الاعظم وطلب ان يُقرَّر ذلك بوقت قريب . ولمّا تحققت آمال بنديكتوس الخامس عشر بالزائر الرسولي ، رقّاه اولًا الى درجة الاسقفية على كرسي لبّانت ، وما أُعلن استقلال پولونية حتى رُفع مقامه الى رتبة سفير بابوي . فحضر سيامته اسقفاً رئيس الجمهورية المارشال بلسودسكي وهيئة الحكومة واعيان العاصمة (٢٨ ت ١ ، ١٩١٩) وارسل اليه البابا صليباً صدريًا تقديرًا لخدماته الجليلة . امّا السفير الجديد فكان قد سبق وقدّم اوراق اعتماده في ١٩ تموز من السنة نفسها ، وافتتح عصر العلائق السياسية بين الڤاتيكان وپولونية .

وفي غضون سفارة السيد راتي ، تدفقت الجيوش البلشفية على پولونية ، وكادت تطوّق فرسوڤية في شهر آب ١٩٢٠ . رأى ذلك السفير البابوي فقابله برباطة جأش ولم يغادر مركزه ، وقد اعجب به الجميع اعجاباً . لكن الله لم يسمح بان تسقط هذه الامة المجيدة بين مخالب السوڤيات ، فارسل اليها القائد الفرنسي ڤيغان واركان حربه الذين ما كادوا يتسلمون القيادة حتى استقامت الحال واخذت الجنود الروسية تتقهقر امامهم فتمكن ڤيغان من اجلائها عن پولونية ببضعة ايام ، واستطاع ان ينقاذ الجمهورية الحديثة آمنة شر اعدائها (٢٥ آب) ، يرافقه دعاء البولونيين وهتافهم . وكان السيد راتي من الذين أعجبوا بمهارة القائد الفرنسي وسرّوا غاية السرور بفوزه وخلاص پولونية .

اصعب ايام السيد راتي في پولونية كانت ايام الاستقلال في سيليزيا العليا . لكنه بحذقه وحزمه تغلّب على تلك العقبات ، وجعل حدًا لضغط بعض الاساقفة الالماني الاصل على اكليرسهم ، ومكّن الكهنة والرعايا من ان يختاروا الانضمام

الى البلاد التي فضّلوها.

وقد حاز السفير لدى الحكومة البولونية نفوذًا عاليًا استعمله فقط لمساعدة الفقراء، ومواساة المتألمين، واطلاق المسجونين ظلماً، وتوزيع القوت على الاحداث الجياع. وقد شاءت جامعة ڤرسوڤية الكاثوليكية ان تعرب عن شكرها اياه واعجابها به فمنحته لقب استاذ شرفي فيها (تشرين الاول ١٩٢١)

٤

مطرانيته، ورقيه الى مقام الكرادلة

فُجعت مدينة مديولان بفقد رئيس اساقفتها التقي النشيط الكردينال اندره فرّاري، فتوجهت حالًا الى السيد راتي انتظار بنديكتوس الخامس عشر بما انهُ كان قد خبر مقدرة سفيره، وعرف صفاته الادارية، وفضائله الكهنوتية، ورأى انهُ كفوء لان يخلف اولئك الاساقفة الذين شرّفوا كرسي مديولان بعلومهم وقداستهم. فنقله من سفارة پولونية الى مطرانية مديولان (١٣ حزيران سنة ١٩٢١) وفي المجمع الكردينالي ذاته رفعهُ الى رتبة الكرادلة.

وقبل ان يستلم ادارة ابرشيته، قاد الى لورد الزوّار الايطاليين في شهر ايلول، ثم دخل مدينته الاسقفية باحتفال عظيم اشتركت فيه طبقات الشعب جمعاء. في مديولان وفي مقدمتها رجال السلطة والجيش. وحام فوق عربته طيّار نثر عليها الازهار ونشرات الترحيب. وكان بنديكتوس الخامس عشر يوم سمّاه مطرانًا وكردينالًا، اطراهُ اطراء بليغًا للغاية وهنّأ ابرشية مديولان به.

وما كاد السيد راتي يستلم مهام وظيفته، حتى علم الجميع ان خطته لن تختلف عن خطة سلفه الكردينال فرّاري، فازدادوا تعلّقًا به. في ٧ كانون الاول ١٩٢١، دشّن جامعة قلب يسوع الكاثوليكية واخذ يهتم بالتعليم والتهذيب، ويُعنى بامر طبقة الشعب الواطية. لكن المجال لم يتسع لهُ لينفذ خطته اذ دعاه الله الى مقام الحبرية العظمى، فألقيت اليه مقاليد الكنيسة الرومانية ليستفيد من نبوغه وخبرته وفضيلته لا اهل مديولان فحسب، بل الكنيسة الكاثوليكية جمعاء.

(للمقال صلة)